نظرة عامـــــــة

ألارومة الأتيكية

ينبغى ـ قبل دراسة هذا العصر الساطع ـ أن نتقدم بإلمامة عاجلة عن هذه العاصمة فنشير فى إيجاز إلى العنصر الذى كان يقطنها ، ثم نلقى نظرة سريعة على تاريخها السياسى ، وأخيراً نختم هذه الإلمامة بلمحة عن اللهجة التى كتبت بها منتجاتها ، والتى ألمعنا إليها فى الجزء الأول ضمن لهجات اللغة الهيلينية .

تقع شبه الجزيرة الأتيكية التى حاضرتها أثينا فى الجنوب الشرقى من إغريقا القارية ، ويصلها بپيلوپونيسيا برزخ كورَنْتـا ، وقد تكوّن الشعب الذى يقطنها من عدة عناصر اختلطت بمرور الزمن شيئاً فشيئاً ، ولم تفاجأ بحوادث مباغتة كحوادث الغزو التى تفـاجئ بعض الأصقاع ، فتقلب فيها الحياة الهادئة رأساً على عقب ، أو تمزج عناصرها الأصلية بعنصر أجنبى قد لا يكون ملتئماً معها ، فتنشأ من ذلك ظاهرات تاريخية لها خطورتها .

كانت أتيـكا أول أمرها ـ فيما يعرف التاريخ ـ مأهولة ببطون من قبيلة الپيلاج البدائية ، ثم انحدرت إليها على التوالى طوائف أجنبية متباينة الأجناس ، بعضها من آسيا كالفينيقيين والكاريين والمينيين ، والبعض الآخر من الشمال كاليُنْيان أو من جهات أخرى فى إغريقا كالپيلوسـيين والأكيان الذين طردهم الدُّرْيان ففروا إلى أتيـكا واستوطنوها استيطان اللاجئين المستغيثين ، لا استيطان الغزاة الفاتحين ، ولـكن العنصر الذى ساد هذه العناصر كلها هو العنصر اليُنْيانى ، ولا يعرف التاريخ الصحيح متى نزحت هذه الشـعبة الهيلينية القوية إلى أتيكا ، وإنما كل ما يعرفه هو أن ذلك كان قبل القرن الثانى عشر . ومعنى هذا كله أن الشعب الأتيكى هو مزيج من أجناس مختلفة تلاشى بعضها فى بعض بهيئة

طبيعية هادئة، وكانت الغلبة فى هذا المزيج للينيانيين ، وهذا هو السر فى إطلاق ذوى النظرة العجلى لفظة يونانى على جميع المنتجات الهيلينية .

لم يكن يُنْيانيو أتيكا يشبهون يُنْيانيي آسيا الصغرى بسبب هذا الاختلاط من ناحية، و بسبب طبيعة مناخ شبه الجزيرة الأتيكية من ناحية أخرى . فلما كانت تلك البقعة الأخيرة قليلة الخصوبة لم يكن سكانها مترفين كسكان يُنْيا الآسيوية ، وإنما كانوا رجال قناعة وعمل ، وقد امتازوا ببساطة تامة فى جميع فروع حياتهم احتفظت لهم بطهر قلوبهم ، و براءة أخيلتهم ، وهما ـ كما يقول أحد المؤرخين ـ الكنزان النفيسان اللذان كانا ينتظران « سوفُكْلِيس » و « أفلاطون » ليبرزا قيمتهما إلى عالم النور .

لمحة عن تاريخ أثينا

الأقاصيص الأسطورية عن هذا التاريخ

لا يكاد أحد يعرف من تاريخ أثينا قبل عهد سولون إلا ماورد عن طريق الأقاصيص الأسطورية ، أما بعد ذلك العهد ، فإن التاريخ الصحيح قد سجل كل الحوادث والظروف ذوات الشأن ، ومجمل هذه الأقاصيص أنه لم يكن فى أثينا عنصر فاز بالغلبة والسيادة الكاملتين واستعبد العناصر الأخر لخدمته على نحو ما حدث فى اسبرْتا ، وإنما كانت مأهولة بطوائف من الأسر الأرِسْتُكراتية التى كانت تتصادم فيما بينها عند ما تتعارض مصالحها ثم تعود إلى السلام والوئام حينما تتفاهم على تسويتها .

أعدت أثينا نفسها بالتربية الأرِسْتُكراتية لذلك المستقبل الرائع الذى واجهته إبان نضوجها ، ولتلك الحرية التى تفانت فيها أثناء نهضتها الاجتماعية الساطعة ، إذ أنها ـ فى عهد يفوعها ـ قد تعلمت من تلك التربية كيف تحترم النظام وتطيع القانون ، و بالتالى كيف تستطيع أن تنشئ ديمُكْراتية صالحة نافعة ، لا ديمُكْراتية فوضوية متصعلكة متشردة .

ولقد كان من آثار هذه التربية النبيلة أيضاً أن احتفظت أثينا طيلة حياتها الزاهرة بقواعد خلقية سامية ، ومبادئ عقلية عالية ظلت ترشدها وتقتادها إلى خير الغايات حتى فى أشد معامع الديمُكْراتية جلبة وضوضاء . وفوق ذلك فإن الشعب الأثينى كان دائماً فى ساعات آلامه ومحنه ملىء النفس بالأمل ، ولم يكن خائراً كشعب اسْبَرْتا يترك قلبه طعمة لليأس ينهشه حتى يأتى على عناصر الحياة فيه . والسبب فى ذلك هو أن ضرورات العيش كانت قد هذبت الأثينيين وشحذت عقولهم ، وأعدت طباعهم للأخذ والرد ، والمفاوضات والمساومات ، وأنشأت فى نفوسهم ملكة الخروج من المآزق ، وفضيلة احتمال الأرزاء .

إصلاحات سولون

هذه هى الخصائص البارزة التى يتبينها الباحث عند ما يستعرض تاريخ أثينا الأسطورى منذ نشأتها إلى أوائل القرن السادس ، أما بعد هذا العهد ، فإن التاريخ الحقيقى ينتصب على قدميه و يحاول أن يؤدى رسالته كاملة فيصور لنا هذا الشعب الراقى وقد وكل إلى «سولون» أحد حكمائه فى سنة ٥٩٤ إصلاح القوانين السياسية والمدنية والمبادئ الخلقية ، كقانون الديون الذى كان يبيح للدائن أن يضع يده على شخصية المدين و يسجنه متى شاء ، فجعله هذا الحكيم المشرع ينص على قصر حق الدائن على تعقب ثروة المدين لا شخصه ، فكانت أولى النتائج العملية لهذا التعديل أن أفرج عن كثيرين من المدينين الذين زج بهم دائنوهم فى غيابات السجون بأمر القانون القديم لعجزهم عن الدفع ، وليس هذا فحسب ، بل إنه قد خفض نسبة الفوائد لكى لا يرهق المرابون ضحاياهم الفقراء . وكذلك قسم الشعب الأثينى إلى أربع طبقات حسب نسب ممتلكاتهم ، وقصر الضرائب على الطبقات الثلاث الأول وأعفى منها الطبقة الرابعة وهى التى لا تملك شيئاً ألبتة ، أو تملك شيئاً ضئيلاً ، ولكنه فى مقابل ذلك حرمها حق الوظائف العامة .

ومن هذا الإصلاح أيضاً أنه أسند السلطة التشريعية إلى مجلس شيوخ مكون من أربعمائة عضو يعينون بالاقتراع ، ولكن الشعب ليس ملزمًا بالخضوع لهذه القوانين إلا إذا

أقرتها الأمة فى استفتاء عام ، فإذا حدث إقرار قانون ما ، قام على تفنيذه تسعة قضاة يدعون بـ « الأرخنتوس» وفوق هؤلاء القضاة تقوم محكمة عليا تدعى « أريو پاج» وهى مؤلفةمن قضاة قدامى .

لم يحطم « سولون » أواصر الأسرة الأثينية كما فعل فى اسپَرْتا مشرعها «ليكُرْغوس» الذى لم يكن يعنيه من الأسرة إلا أن يكون فيها رجال هم وطنيو اليوم ، وفتية سيكونون وطنيي الغد . أما قوانين سولون فقد أبقت الأسر فى أثينا على حالتها الفطرية ، واحتفظت للرجل فيها بمواقفه كابن ثم كزوج ثم كأب ، ولم تحاول أن تسلبه شيئاً من عواطفه الطبيعية فى هذه المواقف كلها .

ومن أبرز هذه القوانين التى وضعها هذا المشرع وخالف فيها اسپَرْتا قانون العمل الذى كان فى هذه المدينة الأخيرة يحظر على الوطنيين الأعمال اليدوية ، فجعله سولون فى أثينا يقهر الجميع على العمل ، إذ ينص على أنه يجب أن يكون لكل وطنى مهنة حتى لا يكون فى المدينة عاطل ، وكذلك أصلح القوانين الخاصة بالأجانب والأرقاء ، فنص على أن للأولين حق الاستقبال الكريم فى أثينا ، وللآخرين حق طلب بيعهم لغير مواليهم إذا كان الأولون يسيئون معاملاتهم .

عهد پيسستراتوس وولديه

بيد أن هذا الحكيم الجليل لم يكد ينتهى من وضع هذه القوانين النافعة حتى تنحى عن وظائف الدولة ، ليتمكن الشعب من تطبيقها بحرية كاملة فتم له ما أراد . وفى سنة ٥٣٨ اعتلى « پيسِسْتراتوس » دست الحكم الطغيانى ، ولكنه كان طاغية معتدلاً محبوباً من الشعب كله ، لأنه لم يلغ قوانين سولون العادلة التى أشرنا إليها ، ولم يرهق الأمة بتكاليف جديدة ، بل كان على العكس من ذلك وديعًا رحيماً عطوفًا على جميع طبقات الشعب ، صديقًا للأدباء والفنانين ، وهو الذى شيد طلائع الآثار الفخمة التى جملت أثينا ، وأنشأ أولى

المكتبات العامة فى إغريقا كلها ، وكذلك هو الذى جمع للمرة الأولى أشتات الإلياذة والأوديسا ، وكوّن منها قصيدتين متماسكتين أوجب تلاوتهما فى الأعياد الكبرى للإلاهة أثينيه .

خلف هذا الطاغية ولداه « هيپَرْكوس » و « هِپّياس » فسارا على نسقه وأخذا فى تشجيع الأدب والفن والحياة العقلية عامة ، فكانا حلقة متممة للسلسلة التى بدأها والدهما ، إذ نما فى عهدهما الشعر ، وارتقت الموسيقى ، وسما الفن وهاجر الشعراء الموسيقيون الموهوبون إلى أثينا كـ « أنكْريون » و « لاسوس » وبرز الشعر الحماسى إلى الصفوف الأمامية ، وتقدم الشعر الدينى والتنسكى بهيئة تلفت الأنظار . وأهم من ذلك كله أن المآسى قد نشأت فى هذا العهد الزاهر ، وأن أثينا بسبب كل هذه العوامل مجتمعة قد استطاعت أن تزعم أنها هى المدينة العقلية الأولى فى العالم الهيلينى كله ، وأن من العدل أن تتزعمه وتستولى على صولجان الصدارة فيه وإن كانت تعلم علم اليقين أنها كانت فى ذلك الحين أقل قوة واستعداداً من اسپرتا .

أسرة ألْكِمْيون[1] وصدارة أثينا العقلية

لم يكد القرن السادس يشارف نهايته حتى كان هِپّياس قد طُرِدَ ، فتم بطرده سقوط أسرة پيسِسْتراتوس وحلت محلها أسرة أَلْكِمْيون النبيلة الناهضة ، وكان من أوليات النتائج العملية لهذا الانقلاب أن اعتلت أثينا عرش الحياة العقلية ، وقبضت بيد حازمة على صولجان الحكمة والفلسفة والأدب والرياضة والفلك وكل أفانين الحياة الفكرية المعروفة فى ذلك العهد . وقد ظلت محتفظة بهذه العظمة التى تفردت بها زهاء قرنين منحت أثناءهما العلم والحكمة كل مافى وسع العقل البشرى من دقة واتزان وعناية ، وسكبت على الأدب أنواعاً من النبل ، وفنوناً من الرشاقة الخاصة التى لا تسامى ، وضروباً من الرقة مع تعمق عظيم

(١) أسرة ألكميون هى أسرة أثينية عريقة تزعم أنها منحدرة من أياس البطل الشهير الذى رأيناه فى الإلياذة يساهم بقسط وافر من حرب تروادة .

يستوجب تخليد هذه المنتجات على مر الدهور وتوالى الأزمان ، ولم لا ؟ أليس فى هذا العصر قد سطعت أنوار حكمة سقراط وأفلاطون وأرسطو وتلاميذهم الأمجاد ؟ أليس فيه قد نزلت الفلسفة من سماء الإلاهيات إلى أرض الحياة الاجتماعية ، فأخذت تحدد الخير ، وتنقب عن الفضيلة ، وتوضح الوسائل العالية الموصلة إلى النهاية القصوى المقصودة من هذه الحياة وهى الكمال الإنسانى ؟ أليس فيه قد أزهرت الرياضة ، وترعرع الفلك ، ونما الطب ، ووضعت أسس المنطق العلمى المنظم ؟ أليس فيه قد أنشئت المآسى والمهازل التمثيلية البارعة : « التراچيدى والكوميدى » ؟ أليس فيه قد وجدت دور التمثيل وسارت فى طريق الكمال حتى أضحت إحدى وسائل الثقافة الشعبية الهامة ؟ أليس فيه قد بلغت الفصاحة الهيلينية أقصى مراتبها ، وارتقت الخطابة حتى أضحت لاتحتمل زيادة من مستزيد ؟ أليس هو الذى أفاض على الاسكندرية من أنواره العالية ماجعلها عاصمة العلم والعرفان فى الدنيا فى العصر الذى تلا العصر الأثينى على ماسيجىء فى موضعه ؟ أليس هو الذى سكب أشعته على بغداد فى العصر العباسى فجعلها منارة الشرق والغرب ؟ أليس هذا العصر على الإجمال هو الذى ألهم كل علماء العصور الحديثة وأدبائها فى أوروبا منتجاتهم التى أصبحوا بفضلها سادة الأمم وقادة الشعوب ؟

كانت إذاً ، صدارة أثينا العقلية هى الظاهرة السائدة التى تميز ذلك العصر عن غيره من عصور الهيلين : فالعبقرية الهيلينية فيه ـ كما يلاحظ الأستاذ كروازيه ـ قد بلغت أقصى حدود نضوجها ، والمحامد الفطرية قد ارتقت إلى درجة السطوع ، والنشاط العقلى الذى هو من خصائصها الذاتية قد آتى ثماره المقصودة ، وهذا كله قد تركز فى تلك الحاضرة المتلألئة ، ولكن ليس معنى هذا أن الإنتاج العقلى فى ذلك الحين قد انطفأ من المدن الهيلينية الأخرى ، كلا ، فإنه قد نما وأينع فى جميع الأصقاع الهيلينية ، وإنما معناه أن العباقرة وذوى المواهب الممتازة كانوا جميعاً يغادرون مدنهم وقراهم منذ طليعة حياتهم العلمية أو الأدبية متجهين إلى كعبة الثقافة الكبرى التى كانت تسطع بحكمائها المتعمقين ، وعلمائها النابهين ، وكتابها المجيدين ، وشعرائها المبدعين ، وفنانيها النابغين ، وليس هذا فحسب ، بل برأيها العام المثقف

الذى قد بلـغ من الأهلية والـكفاية حداً يمـكنه من الحـكم على هذه الفروع المتشعبة من المعارف الإنسانية .

النهضتان السياسية والحربية :

بيد أن هذا السمو العقلى الذى وصلت إليه أثينا لم يشملها بخمرة الغرور ، ولم يغفلها عن تقدير قيمتها المادية على حقيقتها ، ولم يحل بينها و بين إدراك تلك الحقيقة المرة وهى أنها أضعف من اسبرتا ، فجعلت تعالج نواحى الضعف المادى فيها لتعد نفسها لمواجهة الأحداث والتغلب عليها ، فتظفر بالزعامة السياسية كما ظفرت بالصدارة الأدبية والفنية ، وقد ظلت تعمل على إنماء هذه القوة زهاء عشرين عاما . و بعد هذا الاستعداد الطويل المتواصل اشتعلت الحرب الميدية الأولى التى بدأت فى سنة ٤٩٢ وانتهت بانتصار أثينا ، وسببها أن هذه المدينة كانت هى الوحيدة التى آوت ثوار آسيا ، وعطفت على قضيتهم ، وأيدتهم ضد الفرس ، فعز على هؤلاء الأخيرين أن توجد مدينة فى إغريقا تجرؤ على مناصرة أحد عليهم ، فأقسموا لينتقمُنَّ من أثينا شر انتقام ، ثم أعدوا لغزوها حملة هائلة بلغ عدد جنودها مائة وعشرة آلاف ، فلما علمت أثينا بوصول هذا الجيش أعدت له جيشاً عدد رجاله أحد عشر ألفاً بقيادة قائدها العظيم « مِلْتياد » فسحق جيش الفرس سحقاً سجل لأثينا أسمى أنواع المجد وتدعى هذه المعركة بمعركة « ماراثون » ولقد حفظت لنا الرسوم المسجلة على الأوعية الهيلينية مناظر مؤثرة من هذه المعارك التى دارت رحاها بين الهيلين والفرس ، أو بين الهيلين والبربر على حد تعبيرهم . (انظر الصورة رقم ٢ فى الصفحة التالية) .

ومنذ ذلك العهد ألقى الحظ بين يدى هذه المدينة بمقاليد الزعامة السياسية أيضاً ، فتم لها ما تصبو إليه الأمم الناهضة من تفوق أدبى ومادى ، بيد أن هذا الظفر لم يشمل رجال أثينا ولم يدخل الغرور إلى نفوسهم ، و إنما حفزهم إلى زيادة النشاط والعمل على بلوغ درجة الـكمال ، فظلوا يجاهدون حتى صارلديهم أسطول بحرى كبير ، وذلك لأنهم كانوا يتوقعون ألا يخنع الفرس بعد هذه الهزيمة ، و إنما سيعودون إلى محاربتهم يوماً ما . وقد كان ذلك

[ألصورة رقم ٢ للرسام الفرنسى نوتور وهى مأخوذة من رسم على كأس من صنع الفنان الهيلينى ذوريس توجد بمتحف اللفر بپاريس ، وهى تمثل مبارزة بين مقاتل هيلينى ، وآخر فارسى ، ويرى الفارسى وقد هوى إلى الأرض تحت ضربات خصمه] .

بالفعل ، إذ أعلن الفرس عليهم الحرب فى سنة ٤٨٠ وجهزوا لهم جيشاً مرعباً يروى المؤرخون أن عدده قد بلغ أربعة ملايين من الرجال ، لأن غايتهم فى هذه المرة لم تكن الانتقام من أثينا كما كان ذلك فى المرة الأولى ، وإنما كانت ابتلاع إغريقا كلها .

ولما ترامت إلى المدن الهيلينية أنباء ضخامة عدد هذا الجيش وعدده ارتاعت وصممت على الخضوع ماعدا مدينتى أثينا واسپَرْتا ، فإنهما اعتزمتا المقاومة حتى النهاية ولو أدى ذلك إلى محوهما من سجل الوجود ، وقد بدأتا فى تحقيق هذا التصميم عمليا ، فأما جيش اسپرتا فقد خرج لملاقاة هذا الجيش بقيادة مليكه العظيم « ليونيداس » الذى كان أحد المثل العليا فى التاريخ القديم كله ، وقد أشرنا إلى شجاعته فى الجزء الثانى من هذا الكتاب . (انظر الصورة رقم ٣ فى الصفحة المقابلة) .

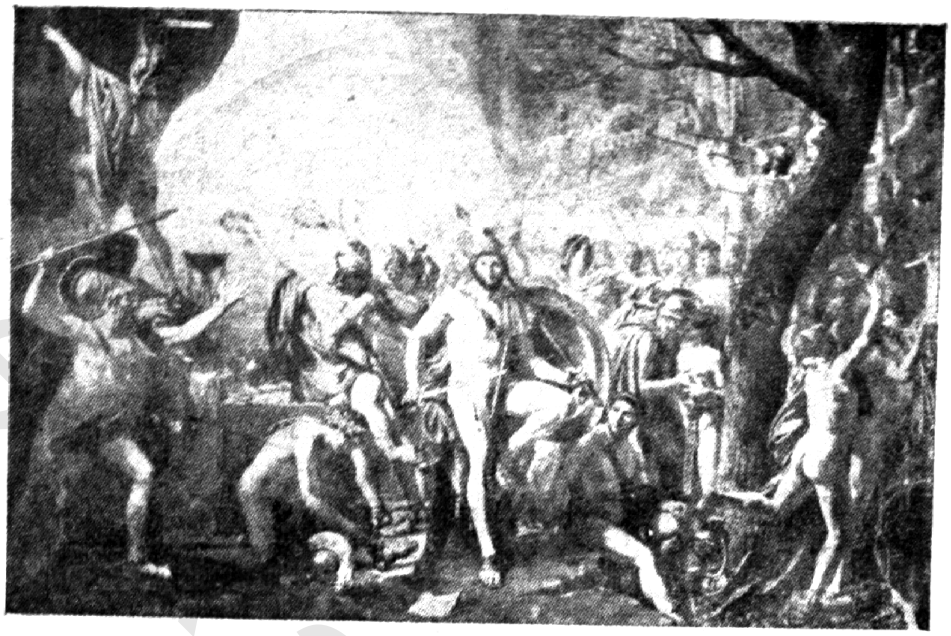

[ألصورة رقم ٣ مأخوذة عن لوحة فى متحف اللفر من صنع الفنان الفرنسى داڤيد ، وهى تمثل ليونيداس ملك اسپرتا الشجاع العظيم فى موقعة ترموپيلوس ، ويرى هذا الملك فى صدر اللوحة قابضاً بيمناه على سيفه ، بينما الترس يحمى يساره] .

على أن ذلك الجيش الصغير ـ وإن يكن مؤلفاً من فرسان أبطال ، وعلى رأسه ملك ماجد ـ لم يستطع أن يقهر ذلك السيل الجارف من جنود الفرس ، ولم يزد على أنه وقف زحفه قليلا فى ممر « تِرْموپيلوس » وإن كان يعلم تمام العلم أنه سيدفع ثمن هذا الوقف غاليا ، وهو فناؤُه عن آخره .

وأما جيش أثينا فقد اعتصم بأسطوله البحرى تحت قيادة « تيمِسْتُكْليس » فى مضيق « سالامينا » الذى كان يتسع لسفنه الصغيرة ، ولم يكن من الممكن أن تمر فيه سفن الفرس الضخمة ، وبهذا تمكن من هزيمة أسطول الأعداء ، وشتت شملهم ، ففر كثير منهم إلى بلادهم ، واشتبكت البقية الباقية مع الجيش الهيلينى بقيادة « پوسَنْياس » ملك اسپرتا فهزمها فى « پلاتيه » فى سنة ٤٧٩ . أنظر الصورة رقم ٤ فى الصفحة التالية)

وأخيراً تعقب الأسطول الأثينى بقيادة « إكْسَنْثيپوس » فلول الفرس فدحرها فى « ميكالا » . وعلى أثر هذا طرد الفرس نهائياً من إغريقا . وعندما وصلت الحرب إلى هذا

[ألصورة رقم ٤ للفنان الفرنسى نوتور ، وهى مأخوذة عن رسم على كأس هيلينية توجد ضمن مجموعة پاسچيو بروما ، وهى تمثل إحدى المعارك الطاحنة التى طالما دارت رحاها بين شرذمة من الهيلين والفرس أثناء هذه الحرب الضروس]

الحد اكتفت المدن الهيلينية بهذه النتيجة لأنها كانت قد تعبت من الجهاد ، وأعلنت أنها لا تود المساهمة فى القتال بعد ذلك إلا بمالها وعتادها ، فلم يَفُتَّ ذلك فى عضد أثينا ولم يثنها عن عزمها ، لأن انتصاراتها المتوالية قد وسعت نطاق مطامعها ، فصممت على أن تحمل الحرب إلى آسيا ، لتهاجم الفرس فى بلادهم ، وقد نفذت هذا التصميم ، فأبحر جيشها إلى بلاد فارس بقيادة « كيمون » بن « مِلْتياد » بطل « ماراثون » فهاجمها وهزم جيوشها فى عقر دارهم هزيمة منكرة اضطرتهم إلى عقد معاهدة مهينة فى سنة ٤٤٩ اعترف فيها الفرس باستقلال جميع المدن الهيلينية الآسيوية ، و بأن بحر إچيا قد أصبح هيلينيا ، و بهذا صعدت أثينا إلى أعلى آواج المجد والجلال ، ودعيت منذ ذلك العهد باسم هازمة البربر ، ومحررة إغريقا ، والقادرة على كل شىء ، فملأها ذلك حماسة وثقة بنفسها ، و إعجاباً بجيشها ، وحملها على مضاعفة أسطوليها الحربى والتجارى حتى أصبح زمام الملاحة بين إغريقا والأجانب بيدهـا .

عهد پيركليس « Périclés »

كان نظام الحكم فى أثينا إذ ذاك أى طوال القرن الخامس ديمُكراتياً معتدلا ، أى أن السيادة كانت للشعب ، ولكن المبادئ الخلقية السامية القديمة كانت موضع احترام

الرأى العام ، وكانت الفضيلة مستمتعة بالهيبة والجلال إذ أن روح المحافظة على التقاليد ، وروح التجديد كانتا تمتزجان امتزاجاً سعيداً ينتظر منه خير الثمرات ، وكانت الوطنية فى أسمى درجاتها ، وكانت الحكمة والآداب والفنون متلألئة أخاذة . ومن أبرز مميزات ذلك العصر تلك الشخصية القوية الفذة ، وهى شخصية پيركليس بن إكسنثيپوس بطل ميكالا ، وهو أحد أفراد أسرة « ألكمئيون » وقد ولد فى سنة ٤٩٤ ثم نشأ وترعرع فى بيت المجد والشرف .

ولما كانت السماء قد اختصته بنصيب عظيم من الذكاء من جهة ، وكانت المصادفات السعيدة قد ألقت بمقاليد تثقيفه إلى أيدى أرقى أساتذة العصر عقلية ، وأوسعهم علما ، وأسماهم خلقاً من جهة أخرى ، فقد لقنه أولئك الأساتذة أرقى أنواع الثقافة ، وأنقى ألوان المعرفة ، وإلى جانب ذلك قد أدبوه أحسن تأديب ، وهذبوه أكمل تهذيب ، وعلموه كيف يتمسك بشخصيته ، ويحتفظ بكرامته ، وكيف يستطيع أن يمتلك نفسه ، ويضبط عواطفه ، ويتخلص من سلطان الهوى ، ويتحرر من عبودية التأثر والانفعال . ومن آيات ذلك أن معاصريه قد اتفقوا على أنه لم يأت فى حياته عملا واحداً ناشئاً عن حركة مفاجئة ، أو ناجماً عن انفعال مباغت . ولقد كان معتدلا لايسرف فى دعايته ، ولا ينثر وعوده وتمنياته هنا وهناك ، بل كان لايظهر فى المجتمعات الشعبية الا فى المناسبات الكبرى ، ولكنه إذا ظهر فيها قذفها بنوع خاص من الفصاحة لم يجد له القدماء نظيراً يشبهونه به إلا الصاعقة المتفجرة .

وإذ كان خطيباً من الطراز الأول فإنه كان يتجنب كل المظاهر العادية والإشارات المألوفة فى مواقف الخطابة ، وكان يلقى خطبه ارتجالا ، وذراعه فى ثنايا معطفه لايحركها ولا يبديها للجماهير على نحو مايفعل عامة الخطباء ، وكان يعرف كيف يؤثر فى سامعيه إلى حد السحر الذى ينتهى دائماً بحملهم على الاقتناع بكل مايريد . ولقد صور لنا « توكيذيديس » خَصْمُه العنيف هذه الموهبة تصويراً دقيقاً فقال : « عند ما كنت أحمل عليه إلى الحد الذى

يهوى به إلى الحضيض و يحقق لى سيادة الموقف كان يرفع الصوت معلناً أنه لم ينهزم ألبتة ، ولا يلبث أن يقنع الجميع بهذه النتيجة »[1] .

أما حياته الخاصة فقد كانت بسيطة متواضعة مفرطة فى القناعة ، متذرعة بالاتزان ، وكانت نفسه الكبيرة آية من آيات الاعتدال لا تغويها أعراض الحياة ، ولا تشملها خمرة الظفر ، ولا يبهرها ضوء التفوق . وكان أسمى من أن يغريه الثناء أو يثيره الهجاء . ولا جرم أن هذا المسلك الذى جمع العزة والكرامة إلى الحذر والاحتياط ، وذلك السلطان المعنوى القوى الذى ضربت العبقرية والفضيلة والبلاغة نطاقه حول اسمه وشخصيته قد أعداه أكرم وأنبل إعداد لأن يكون سيد أثينا بلا طغيان ، ورئيسها بلا دعاية ، وزعيمها بلا ملق ولا تمويه . (انظر الصورة رقم ٥ فى الصفحة التالية)

ولما بلغ منتصف الحلقة الرابعة تم له الاستيلاء على مقاليد الحكم فى أثينا ، فظل يديره أحكم إدارة زهاء ثلاثين سنة بفضل مواهبه وعلمه وفضائله ، ولقد كان أثره فى هذا العصر بارزاً إلى حد أن دعى باسم عصر « پيركليس » .

وفى الحق أن هذه الخمسين سنة التى فصلت بين الحرب الميدية فى إغريقا ، والحرب البيلوپونيسية كانت فى تاريخ أثينا حقبة لا نظير لها .

ولقد ظل هذا الحاكم المنقطع النظير محتفظاً بمكانته حتى انطفأ مصباح حياته فى سنة ٤٢٩ .

ومن مميزاته الأساسية أنه كان مثالاً من مثل الشجاعة فى جميع الحروب التى اندلع أوارها فى عصره ، وهى كثيرة متوالية . وكما تفوق فى الشجاعة والصلابة فى التمسك بحقوق بلاده ، كان كذلك نموذجاً من نماذج المهارة السياسية ، ولكن الذى سجل فيه الرقم القياسى هو أنه وضع نصب عينيه غاية واحدة جعل يهدف إليها طول حياته و يتخذ كل ما يمكن اتخاذه من الوسائل لتحقيقها ، وهى رفع أثينا إلى أسمى قمم القوة والمجد ، وتسجيل

(١) Duruy, Petite Histoire grecque, P. 89 .

[ألصورة رقم ٥ مأخوذة عن تمثال نصفى أثرى لـ« پيركليس» يوجد فى متحف الڤاتيكان بروما ، وعلى ملامح هذا التمثال المتقن تبدو جلياً الحكمة العميقة ، والعقل المتبصر ، والإرادة الحازمة ، والنبل السامى ، والخيرية الكاملة ، وما إلى ذلك من محامد پيركليس الكثيرة التى فرضت هيبته على الجميع دون أن يتطلبها] .

اسمها فى صفحات الخلود . وقد نجح فى مهمته نجاحاً موفورا ، إذ تمكن من أن يجعلها عاصمة العالم المتمدين فى ذلك الحين . فبذل مجهوداً فى تشجيع النهضة الفكرية ، والعمل على إنضاج العقليات الممتازة فى الفلسفة والأدب والفن . وإذ كنا قد ألمعنا إلى نتائج الجانب الفكرى البحت ، فقد بقى أن نشير هنا إلى الفن فنسجل أن هذا الزعيم العظيم قد أفعم أثينا بالآثار الفنية التى ضمنت له ولها خلود المجد أو مجد الخلود .

ومن أشهر هذه الآثار العملاقية معبد « البَرْثينون » « Parthénon » الذى أمر بتشييده للإلاهة أثينيه فوق تل الأكْروپوليس .

[الصورة رقم ٦ مأخوذة مباشرة عن أطلال البرثينون معبد أثينيه إلاهة الحكمة ، وهو مبنى كله من الرخام الخالص ، وقد اشترك فى (تصميمه) المهندسان الشهيران : اكتينوس وكالكراتيس ، ويعتبر آية من آيات الفن الدرياتى ، وطوله سبعون متراً ، وعرضه اثنان وثلاثون متراً ، وارتفاعه اثنان وعشرون متراً ، وهو ـ رغم تهدمه ـ لايزال يحدث انفعالا عظيماً فى نفس كل من يراه].

وكذلك معبد أثينيه نيكيه ، أى أثينيه المنتصرة ، وأعمدة بروپيليه الجميلة الساحرة « Propylées »

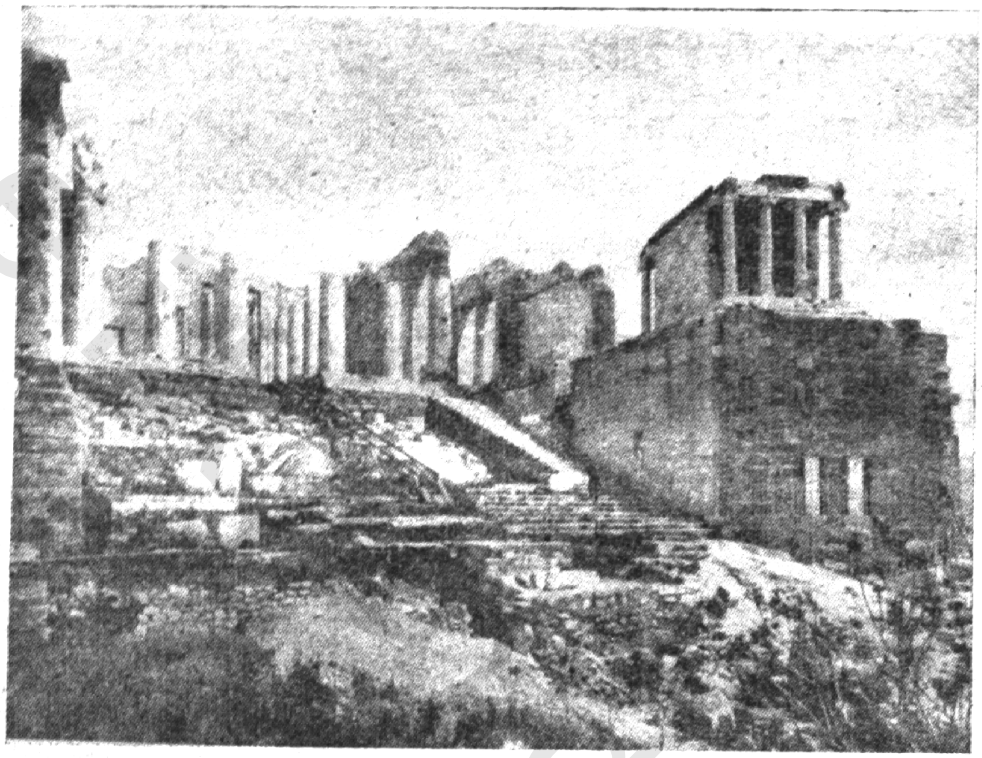

[ألصورة رقم ٧ مأخوذة بطريقة مباشرة عن أطلال تلك الواجهة الجميلة ذات الأعمدة الخالدة من الأكروپوليس ، وترى فيها هذه الواجهة التى هى نموذج ساحر من نماذج فن العمارة الدريانية ، وقد وضع تصميمها المهندس الهيلينى منيسكليس ، كما يرى فى هذه الصورة بقايا أطلال معبد أثينيه المنتصرة] .

وكما ساعد تشجيع هذا الحاكم الجليل على نبوغ عدد كبير من المفكرين والفلاسفة والشعراء والكتاب والمهندسين المعماريين ، ساهم كذلك فى العمل على تفوق عدد لايستهان به من المثالين الذين وصلوا فى صناعة التماثيل إلى حد الإعجاز ، ومن أبرز هؤلاء الأفذاذ الخالدين « فِدْياس » « Phidias » الذى كان معاصروه يلقبونه بمَثّال الآلهة ، والذى صنع — من الذهب والعاج للإلاهة أثينيه — ذلك التمثال المعجز الذى يحدثنا التاريخ أن ما استعمل فيه من الذهب بلغ أكثر من ألف كيلو ، والذى رأينا فى الصورة رقم (١) ماصنع من الرخام على غراره . وكذلك هو الذى صنع فى معبد أولَمْپيا تمثال زوس من

الذهب والعاج أيضاً ، وهو يمثل ملك الآلهة جالسا ، وارتفاعه ثمانية عشر متراً ، وهو لا يقل شهرة وفتنة عن تمثال أثينيه .

على أن هذه الأعمال الجليلة التى قام بها بيركليس لتخليد مدينته لم تسلم من دس الحاسدين وحقد المبغضين فجعل أولئك وهؤلاء يتمتمون فى المنتديات الشعبية خفيـة بأن صنع هذه التماثيل على هذا النحو من البذخ فيه إتلاف لمال الدولة ، وطفقوا يتعهدون هذ الفكرة بالإيماء حتى تجسمت ووصلت إلى مسمع بيركليس ، فدعا إلى عقد اجتماع عام ثم قام فيه خطيبا فقال : « أيها الأثينيون أترون أننى أنفقت على هذه الآثار مالا طائلا ؟ فأجابته الأصوات من كل مكان أن نعم ، فقال هذا حسن ، فلا أحتمل أنا وحدى هذه النفقات كلها ، ولـكن العدالة فى هذه الحالة تقضى بأن يسجل اسمى منفردا على هذه الآثار ، ولا أريد غير هذا الشرط [1] .

وإذ ذاك قهرت عاطفة المجـد إحساس الحسد والحقد والدس ، فهتف الجميع قائلين : كلا كلا ، إستمر فى تخليد المدينة دون أدنى اقتصاد ، ولدينا ما يتطلبه هذا المجد العظيم [2] .

وهكذا سار بيركليس إلى الأمام فى كل شىء لا يلوى على ما يحدثه مجده فى نفوس الحاقدين من غيظ وحفيظة ، لأنه لا يحسب حساب نفسه ، ولا يأبه لشخصه ، وإنمـا هو يتخذ أثينا غايته العظمى التى لا يدع لشأن من شؤون الحياة غيرها فى نفسه أدنى مكان ، ولهذا لم تكن الحقبة التى حكم فيها محصورة فى نطاق الأمور العادية ، وإنما كانت حقبة ابتكار وإنشاء ، بل خلق وخصوبة زائدين على المألوف . ومن آيات ذلك أن سطعت فيها كواكب : « أنكساغوراس ، وبروتاغوراس ، وسقراط ، وإسخيلوس ، وسوفكليس ، وأوريبيديس ، وأرستوفانيس ، ولسياس ، وفدياس ، وأبولودوروس .

ومما يلفت النظر فى هذا الشأن ما كان الجنس اللطيف يستمتع به فى عهد بيركليس من حرية واستقلال ، فقد كانت السيدة تستطيع أن تخرج من منزلها متى شاءت وكيف

---

(١) كانت التقاليد المتبعة فى أثينا فى ذلك الحين أن ينقش على التمثال اسم صانعه الفنان ، واسم من تولى الإنفاق عليه .

(٢) Durug, Même Luire, P. 96.

شاءت ترافقها اثنتان أو أكثر من جواريها وتذهب إلى الحفلات العامة كحفلات ذلفيه وأولمبيا ، وتقود مركبتها بنفسها على نحو ما تفعل سيدات القرن العشرين بسياراتهن .

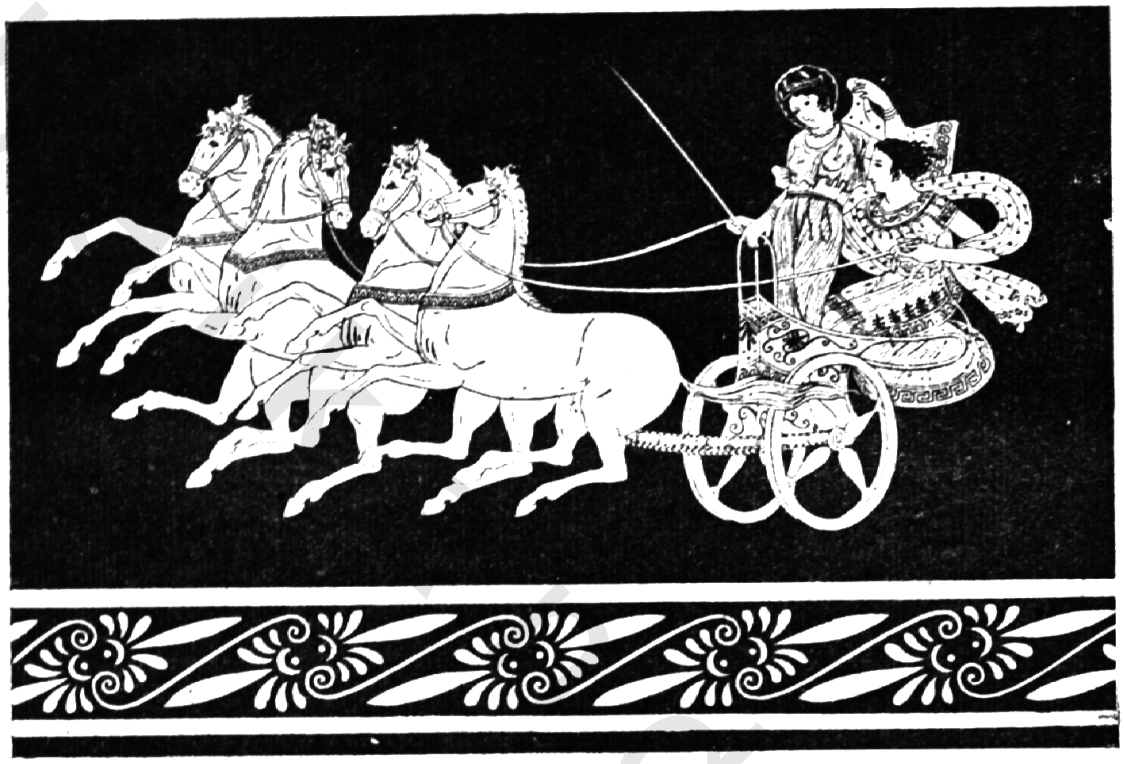

[ألصورة رقم ٨ للفنان الفرنسى نوتور ، وهى مأخوذة عن رسم على وعاء هيلينى يوجد ببريتيش مزيوم بانجلترا ، وهى تمثل سيدتين من أرستكراتيات أثينا تقودان مركبة من ذوات الجياد الأربعة] .

ولقد كانت المرأة فى ذلك العهد تهتم بالفنون المختلفة فتساهم فى الشعر والموسيقى والرسم والرياضة البدنية ، وكانت الغاية التى يرمى إليها المصلحون من تهذيب المرأة وتثقيفها هى رفع مستواها إلى مستوى الرجل كما يروى لنا فُلُوتَرْخوس ، وكن يجتمعن فى نواد خاصة يتبادلن القريض ، ويوقعن على القيثارة كما تظهرنا على ذلك عدة رسوم على أوعية هيلينية .

(أنظر الصورة رقم ٩ فى الصفحة الآتية)

عهد التدهور السياسى

بيد أن أثينا السياسية ـ مع الأسف الشديد ـ قد انغمست فى بحر التيه والكبرياء ، وجعلت تعامل حلفاءها القدماء معاملة الرعايا ، ونسيت أن ضعيفين يغلبان قوياً ، فشاكت

هذه المعاملة من جانبها المدن الهيلينية الأخرى فأخذت تتفاوض سراً مع اسپرتا التى كان مجد أثينا وسطوعها فى سماء الدنيا قد جرحا عزتها وألجآها إلى الانزواء فى داخل حدودها ، فلما سنحت لها فرصة هذا التألب من جانب المدن الأخرى ضد حاضرة الحكمة والأدب لم تشأ

[ألصورة رقم ٩ للفنان الفرنسى نوتور ، وهى مأخوذة عن رسم على وعاء كان موجوداً إلى عهد قريب بمتحف الإرميتاج بسنبترسبرج ، وهى تمثل أحد الاجتماعات العامة التى كانت مألوفة لدى السيدات الأثينيات فى ذلك الحين قصد المناقشات العلمية ، والمناظرات الأدبية] .

أن تهمل انتهازها ، بل بالعكس قد شجعت هذه الروح المتمردة ، وعملت على تأليف حلف قوى ضد أثينا ، كانت أولى نتائجه أن اندلع لهيب الحرب البيلوپونيسية التى دامت زهاء سبعة وعشرين عاماً تأرجحت أثناءها أثينا بين النصر والإخفاق ، وتناوبتها عوامل الأمل واليأس ، ولكن السنين العشر الأخيرة كانت شؤماً عليها ، إذ فقدت فيها أسطولها ، ثم انتهت بفقد استقلالها وخضوعها للقائد الإسْبَرْتى « ليسَنْدروس » فأزال أسوارها وحظر عليها أن يكون لها أكثر من اثنتى عشرة سفينة ، ولم يكتف بهذا ، بل أهانها إهانة شديدة بتدخله فى نظام حكمها الداخلى ، إذ فرض عليها فى سنة ٤٠٤ حكومة الطغاة الثلاثين ،

ولكن هذه الحكومة لم تدم طويلاً ، إذ لم تلبث أن سقطت فى سنة ٤٠٣ عند ما نهضت أثينا ونفضت عن نفسها غبار الهزيمة ، وجمعت شتاتها ، وأعادت الدستور القديم ، واسترجعت كثيراً من قوتها ومجدها التليدين ، ولكن روحها الأولى لم تعد كما كانت فى عهد عظمتها الغابرة ، بل إن نظرتها إلى الحياة قد تغيرت ، فالحمية القديمة قد فترت ، والتفانى فى الصالح العام قد خفت صوته ، وجعل كل فرد يشتغل بمصلحته الشخصية ، والوطنية المخلصة قد أخذت تتلاشى من النفوس . وبالإجمال قد ظهرت عيوب الديمُكراتيه المتصلكة الشرهة الأنانية بأجلى مظاهرها ، وجرف سيلها الطاغى المظهر الأخير من الفضائل ، ولم يعد باقياً من المبادئ الخلقية الأولى إلا مالاَ مندوحة عنه لسير الحياة العامة ، فانتشرت الرفهنية ، وزاد الترف ، وساد الانغماس فى اللذات البدنية ، وسهل اقتحام حصون التقاليد التى كانت إلى ذلك العهد موضع احترام الجميع ، وحل التكلف والتعمل محل الصراحة والبساطة القديمتين ، وترك الوطنيون أنفسهم يمتزجون بالأجانب ، وينحلون شيئاً فشيئاً فى كل فروع حياتهم الاجتماعية حتى لم يكد يبقى منهم شىء يمكن أن يكون قد برئ من التأثير الأجنبى ، فتقزز ذوو العقول الذكية ، والمواهب العالية ، والقلوب النبيلة من هذه الحالة الأسيفة ، واعتزلوا المعامع العامة ، وجعلوا يشتغلون بالحكمة والعلم ، وينظرون إلى الشؤون السياسية والاجتماعية نظرة المتفرج الدقيق الذى يلاحظ على بعد دون أن يتدخل فى الأمر تدخلاً عملياً .

وكما تغيرت الحياة الخلقية تغيرت أيضا الحياة العقلية فى جميع نواحيها ، فاختفى الخيال الابتكارى الذى كان من خصائص العصور الماضية ، وتحولت المواهب عن الانشاء المثالى وعن التطلع إلى عالم المجردات وانصرفت العقول عن الفيذاتية المطلقة ، وجعلت النظرة العامة تتجه نحو الأرض وما عليها من واقعيات ، وأخذ الشعر يصور ما هو كائن بعد أن كان يرنو إلى ما يجب أن يكون ، وخضع الفن للمحسات المحيطة بالفنان بعد ان كان يستمد نموذجه فى العصور السالفة من صور الأساطير القاتنة ، ورسوم سكان الأولمپوس الساحرة التى تفوق الانسانية وتعدو أمامها نحو المجهول الذى لا حد له ، وطفق التفكير يتجه صوب المشاهدة والتدليل الحسى ، فأصبحت الجماهير لا تتذوق إلا القصائد التى تصور العواطف العادية التى

تختلج قلوب أكثر الناس ، ولا تعجب الا بالتمثال الأرضى ، ولا تصفق إلا للخطيب الذى يستمد عناصر خطبته مما يحوطه من ظواهر وأحداث ، ولا تذعن الا للمفكر الواقعى . ولهذا كله كان شعراء هذا العصر وكتابه وفنانوه ومؤرخوه وفلاسفته يمثلونه تمثيلا صادقاً ، لأنهم جميعا كانوا يزعمون أن عصرهم هو عصر الحقيقة الواقعية وأن رسالة كل منهم هى المساهمة فى كشف هذه الحقيقة ، ولكن أكثر يتهم الغالبة رأت أن وسيلة هذا الكشف هى التجربة والملاحظة ، ولم يشذ عن هذه الكثرة إلا فئة قليلة على رأسها أفلاطون أيقنت بأن الحقيقة المرموقة هى فى عالم المجردات السامى ، لا فى المحسات الحائلة ، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن أفلاطون مع شذوذه عن الجماعة فى الوسيلة لم يختلف عنها فى الغاية المنشودة وهى البحث عن الحقيقة . وبهذا يكون ملتئما مع عصره فى روحه الجوهرية ، شاذا عنه فى الثانويات العارضة .

على أن افتتان هذا العصر بالبحث عن الحقيقة فى شعره وفنه وتفكيره ، واقصاءهُ الخيال البحت عن جميع فروع حياته ليس معناها أن الشعر الخيالى قد انمحى من النفوس ، كلا ، وإنما قد كبت فيها وظل رهين القلوب لا يغادر صفحاتها إلى صفحات السجلات ، وهو الذى كان يحميها من جفاف الواقعية المغالية المحدقة بها ، ويمنح أساليب العصر ما فيها من رشاقة وانسجام .

اللهجة الأتيكية:

كان لأثينا كغيرها من المدن الهيلينية الأخرى لهجتها الخاصة بها ، وهى اللهجة الأتيكية وقد تمسكت بها منذ فجر نهضتها فجازت بها حدود التخاطب إلى دائرة التأليف ، وجعلت تدعو لها وتستخدم قوتها وسلطانها فى نشرها وتعميمها حتى شملت إغريقا كافة .

تقترب هذه اللهجة من اللهجة الأيونية بعض الشىء وإن كان بينهما فروق أساسية ، فهى مثلها رشيقة عذبة على السمع ، ولكنها تمتاز عنها بالقوة والصلابة ، لأن اللهجة الايونية

رخوة . ولا جرم أن هذا الفرق هو وليد آثار الرفهية فى إيُنْيا الآسيوية وصعوبة العيش فى أتيكا كما ألمعنا إلى ذلك فى طليعة هذه العجالة .

وكما امتازت الأتيكيةعن اليُنْيانية بصلابتها هى تمتاز أيضا عن الدريانية بخفتها ، لأن هذه الأخيرة ـ وإن كان لها رنين فخم ـ فيها شىء من الثقل الذى يكد العقل ويشعره بالسآمة . وبهذا تكون اللهجة الأتيكية قد ظفرت بوداعة اليُنْيانية ورشاقتها وأضافت إليهما الصلابة ، وفازت من الدريانية بالقوة وأضافت إليها الخفة ، فكانت كأنها انتقاء لأحسن ما فى اللهجتين ، فإذا أضفنا إلى هذه الميزة العظيمة سلطان أثينا الأدبى ، ومجدها السياسى ، استطعنا أن نعلل سيادتها فى بلاد الهيلين .

ألمنتجات الأدبية المختلفة فى هذا العصر :

من كل ما أسلفناه فى هذه الإطاعة يتبين أن تلك الحقبة لم تكن بسيطة أو سهلة الانحصار ، وإنما كانت معقدة متنوعة الجوانب والأنحاء ، وأن كل جانب من جوانبها مؤلف من عناصر مختلفة الأجناس والأنواع ، وأنها لكى تفحص فحصا دقيقاً ، وتعرف معرفة ذات أثر فعال ينبغى الإلمام بأهم عناصرها الأولية ثم توزيعها إلى فصائل منظمة حسب خصائصها ومميزاتها ،وإليك البيان :

أوضحنا أكثر من مرة أن أثينا كانت ـ فى القرنين الخامس والرابع ـ عاصمة الثقافة والعرفان وحاضرة الأدب والفن بلا معارض ولا منازع ، وأن الثمار الأساسية التى أنتجها الفكر الهيلينى كله نشأت أو ترعرعت حتى نضجت فى ربوعها ، وأن مبعث فخار هذين القرنين من شعر ونثر قد تكون بين جدرانها . أو سعى الى حرمها المقدس ليثبت وجوده وصلاحيته للحياة .

ولما كانت غايتنا من هذا الجزء هى تعقب ثمار العصر الأثينى تلخيصا وتحليلا ونقدا فى شىء من البيان فقد ينبغى لنا أن نلمع ـ قبل الدخول فى تفاصيل هذه الدراسة ـ إلى العناصر

الأولى لهذه الثمار لنلقى عليها شيئا من الضوء يجعل دراستها من الأمور الميسورة فنقرر بديا — فيما يتعلق بالشعر — أن المأساة قد بدأت منذ طليعة القرن الخامس تتخلص من الديثيرَمبوس وتقف على قدميها ، وتكوّن لها شخصية مستقلة تظل تنمو شيئاً فشيئاً حتى تسطع فى سماء أثينا وتصبح زينة حفلاتها ، وحلية أعيادها ، ويستمر هذا السطوع حتى يشغل القرن الخامس كله :

وكما نشأت المأساة عن الديثيرَمبوس كذلك تنشأ المهزلة من طقوس ديونيسوس ، وتأخذ فى النمو إلى جانب المأساة حتى تصل إلى أسمى آواجها فى الربع الأخير من القرن الخامس .

أما النثر الذى رأينا نشأته فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، فإنه يستمر فى التقدم والارتقاء عن طريق الثمار الفلسفية التى تبلغ القمة ، والمنتجات التاريخية التى تتبوأ الذروة ومبدأ الخطابة التى ستنجب الفصاحة والبلاغة اللتين سنراهما فى أسمى درجات تلألئهما فى القرن الرابع فى المؤلفات القانونية ، والمرافعات القضائية ، والحجج الجدلية ، والمباريات السياسية » ، وهذا هو عين المنهج الذى سنسلكه فى دراستنا هذه المنتجات ، أى أننا سنتتبع المآسى فى نشأتها وشبابها ونضوجها ، فإذا انتهينا منها انتهجنا نفس الخطة بإزاء المهازل ، فإذا فرغنا من ذلك اتجهنا إلى النثر بفروعه المتباينة فحاولنا تجاهه هذه المحاولة ذاتها ممتلئ النفس بالأمل فى أن يصحبنا التوفيق .